

رقم الدرس ٤٠٩
الأربعاء ٣-٣-١٤٣١هـ

شرح سنن الترمذي كتاب الجنائز

المُلَقَّاة بِجَامِعِ الْمَلِكِ سُعُود - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِجَدَّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُور

مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُزَيْدِ الْجَنْبِي الشَّنْقِيطِيِّ
الْمُدَرِّسِ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ

وَعَضُو هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

وَمُقَوِّضِ الْإِفْتَاءِ بِمَنْطَقَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِعِلْمِهِ وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّرُوسُ لَمْ تُرَاجَعْ مِنْ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ - حَفَظَهُ اللَّهُ - .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قَالَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: ((لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ نَزْلُ بِهِ، وَلِيَقْلَ: اللَّهُمَّ، أَخْبِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفِّي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)).

قال - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: بِذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَلِكَ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيسَى - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونهجه، واستق بسنته إلى يوم الدين، أمّا بعد:

فقد ذكر الإمام الحافظ الترمذي هذا الحديث، حديث أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -، وقد بين النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في هذا الحديث ما ينبغي أن يكون عليه المسلم والمؤمن الصالح من قوة اليقين بالله - عَزَّ وَجَلَّ -، وحس الظن بالله - جَلَّ جَلَالُهُ -، وكمال التوكل عليه، وصدق اللجأ إليه. ولا شك أنَّ الحياة مليئة بالهموم والغموم والمصاعب والمتاعب، ولكن الله يهونها بقدرته، ويسر عسيرها برحمته، فهو اللطيف بخلقه، العليم بضعفهم، وشدة حاجتهم إليه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

ولذلك بين النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنَّها إذا عظمت على المؤمن الخطوب، وأحاطت به الهموم والكروب، أنَّه ينبغي عليه أن لا يكون جزعاً، وأن لا يكون ضعيفاً، بل ينبغي عليه أن يكون قوياً بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

((لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ نَزْلُ بِهِ)): وهذا يدل على أنَّ المصاعب والمتاعب تُهَوَّنُ إذا هَوَّنَهَا الله - جَلَّ جَلَالُهُ -، وتكون يسيرة مع أنَّها في حالها عسيرة إذا شاء الله تيسيرها.

وكم من عبد عظمت عليه الكروب، وأشدت عليه الخطوب، ولكنَّه بفضل الله - جَلَّ جَلَالُهُ - وبإيمانه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وتوحيده، وصدق العبودية له - جَلَّ جَلَالُهُ - كأنَّه في نعيم، وكأنَّه في راحة وخير، مع أنَّه يذوق من العذب أصنافاً، ويتقلب في البلايا ألواناً وأشكالاً، ولكنَّه بمناجاته لله، والتجاءه إلى الله

وصدق عبوديته وتوحيده لله يتلذذ، فيجعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- عسرَه يسرًا، وضيقة سعةً، وهذا كله بفضل الله وبفضل توحيده والإخلاص له: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} فهو -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يعينُ عبده إذا استعان به.

فبينَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّ الضر والشدائد والمصائب والمتاعب شديدٌ وقعها على الناس، شديدٌ وقعها على القلوب، ومن هنا بينَ ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الالتجاء إلى الله بالدعاء. ومناسبة هذا الحديث لكتاب الجنائز: واضحة؛ لأنَّه قبل موت العبد، وقبل خروجه من الدنيا قد يتتليه الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لكي يخرج منها نقيًّا من الذنوب، وقد يكون العبد قد أعدَّ الله له منزلةً في الجنة لم يبلغها، ولكن شاء الله -جَلَّ جَلَالُهُ- أن يتتليه قبل موته ببلاءٍ، تُرْفَع به درجته، وتعظم به عند الله منزلته، ومن هنا يرى الإنسان البلاء شرًّا في ظاهره، ولكنَّه خير في باطنه: {وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}، وهذا كله امتحانٌ من الله.

فإذا دنا العبد من الآخرة أشدت عليه الأمور، فمنها ما يكون في نفسه، ومنها ما يكون في أهله وولده وما يخلفه وراء ظهره، خاصة إذا كان وراءه أيتامًا، سييتم أولاده، وترمَل نساؤه. فهذه كلها أمور تزلزل بها القلوب، والمناسبة أنَّه يحتاج الإنسان إلى السبيل الأمثل، والطريق الأقوم الذي يرضي الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

أهمُّ شي يفكر فيه الإنسان في هذه الدنيا كيف يرضي الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ومن هنا بينَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنَّه ليس هناك ملجأ ولا منجى للعبد من بلاء الله إلا بالالتجاء إلى الله. ((لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ نَزْلَ بِهِ)): فهذا يقع من الناس، خاصة في مرض الموت، وشدة الأسقام والآلام، فإنَّه قد يصبر، ثم يضعف إيمانه -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

والناس على أحوال:

منهم من إذا اشتدت عليه البلياء قبل موته، ربما -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- تزلزل، وضعف إيمانه، فقال ما لا خير فيه، فهذا مما ينبغي للمسلم أن ينتبه له، أنَّه قبل رحيله من الدنيا قد يُشَدَّد عليه في الأسقام والآلام والمتاعب والمصاعب، فيرى ما يسوؤه لا ما يسره؛ لأنَّ الدنيا سجنٌ المؤمن، فإذا أراد فراقها، والخروج منها، وشَدَّ عليه، وعظمت عليه الكربات، وعظمت عليه المصاعب والبليات فإنَّه إذا نزل به أمر الله اشتاق إلى لقاء الله، وأحبَّ لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءه.

لا يحسن العبد أن ضيق الدنيا عليه، وما يصيبه فيها من المهانة والمذلة، وأذية أهلها له كل ذلك يجري على الطبيعة أو الصدفة كما يقولون، أبداً والله، إنما هو لحكم وأسرار لا يعلمها إلا الله -جلّ جلاله-، إذا أحبّ الله عبده اصطفاه، ومن دلائل الاصطفاء أنّه ينفر من هذه الدنيا، ويرتاح إلى الآخرة، ويرتاح لليقين بالله، وحسن الظن بالله -جلّ جلاله-.

فهذا الحديث يحتاج إليه المؤمن، خاصة قبل فراقه من الدنيا، ولذلك كان -صلى الله عليه وسلم- شدّت عليه سكرات الموت، وكان يقول: ((إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ))، وهذا يدل على أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جعل هذه الدنيا بلاءً على المؤمن، ولكنها نعمة في ثوب نعمة، وظاهر البلاء أنّه مهانة، ولكن حقيقة أنّه كرامة، فالله يصطفي العبد لهذه البلايا.

((لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ نَزْلَ بِهِ)): وهذا كثير في ضعف الإيمان والجهلة، أن الرجل إذا أصابته مصيبة قال: يا ليتني مات، يا ليتني مت، يا ليتني لم أكن شيئاً، يا ليت -أعوذ بالله- ربي أخذ روحي، يا ليتني ارتحت من الدنيا، يا ليتني لم أر كذا، يا ليتني لم أسمع بكذا.

((لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ نَزْلَ بِهِ)): المؤمن لا يجزع، ولا يفزع، المؤمن يتوكل، ويأخذ بالأسباب، ويحسن الظن برب الأرباب، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: ((أَنَا عِنْدَ حَسَنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا كَانَ لَهُ))، فمن نزلت به المصاعب، واشتدت عليه المتاعب، وقال: يفرجها الله، وربّي لا يخيبني، اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، اللهم أعني، اللهم يسّر لي، اللهم اغفر بهذا البلاء ذنبي، وأرفع به درجتي، وكفرّ به خطيئتي، فإذا بالبلاء يتسع:

يُوسِّعُ الضِّيقَ الرِّضَا بِالضِّيقِ وَإِنَّمَا السَّعْدُ مِنَ التَّوْفِيقِ

فمن وفقه الله سدد في قوله، وسدد فيما يكون منه.

فإذا كانت ضمائر المؤمنين منطوية على الإيمان واليقين، فأثما إذا شدّت عليها البلايا خرجت منها هذه النفحات، والكلمات الطيبات التي تصعد فتفتح لها أبواب السماوات: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، فإذا قال العبد: (الله ربي، الله لا يخيبني، الله يعينني، الله يسّر لي)، فإنّه تفتح أبواب السماوات لهذا التوحيد، ولهذه العبودية، ولهذا الصدق، ولذلك لا يظهر المؤمن على حقيقته إلا في مثل هذه المواطن. ومن هنا من يلي المرضى، ومن يكون قريباً من المريض مرض الموت، ومن يكون قريباً ممن دنت ساعته، وحالت قيامته، عليه أن ينتبه لهذا الأمر العظيم، وهو توحيد الله، وتسليم الأمور إلى الله وتفويضها إلى

الله، مع حسن الظن بحسن العاقبة، ولذلك: **{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}**، يثبتهم بسداد القول، وحسن الظن بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

((فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ قَائِلًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ، أَحْبَبِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))، هذا دعاء يقوله عند الشدة، إذا كان ولا بُدَّ قَائِلًا فليقل هذا الدعاء. وهذا يدل على أَنَّ الأصل أَنَّهُ عليه أَنْ يَسْلَمَ وَيَسْتَسْلِمَ، وَأَلَدُّ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ، وَأَطْيَبُ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ بِالْإِسْلَامِ وَالتَّسْلِيمِ، فَمَا خَلَقْنَا اللَّهَ إِلَّا لِتَوْحِيدِهِ، وَأَعْلَى دَرَجَاتِ التَّوْحِيدِ الْيَقِينُ، وَالرِّضَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. ولذلك كان بعض السلف يقول: إِنَّهُ يَجِدُ أَثْنَاءَ الْبَلَاءِ لَذَّةً، فَإِذَا زَالَ عَنْهُ الْبَلَاءُ تَمْنَى أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ تِلْكَ اللَّذَّةُ؛ لِأَنَّهَا لَذَّةُ الْأَنْسِ بِاللَّهِ، وَالثِّقَّةُ بِاللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، مَا خَيَّبَ اللَّهَ عَبْدًا صَدَقَهُ، مِنْ صَدَقَ اللَّهَ، صَدَقَ اللَّهَ مَعَهُ.

فالكلمات التي فيها تدمير، وفيها تسخط، وفيها جزع، وفيها فزع، كلها لا تغني للعبد من الله شيئاً، بل إِنَّهَا قَدْ تَبْعَدَ الْعَبْدَ مِنَ اللَّهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -.

ومن هنا ينبغي للعبد أن يحذر من كلامه، خاصة عند نزول البلايا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَخَبَّطُ الْإِنْسَانَ وَمَنْ تَخَبَّطَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَلَا يَلِيقُ بِاللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ -، مِثْلُ: سَوْءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَمَا يَكُونُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَخَالَفُ التَّسْلِيمَ، - نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ -: **{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}**، فَتَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَبْقَى دُرُوسًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، مِنْ أَهْلِ التَّسْلِيمِ، مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ، مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ، تَخْرُجُ مِنَ الْعَبْدِ الْكَلِمَةُ تَبْقَى نُورًا وَخَيْرًا لِمَنْ وَرَاءَهُ مِنَ الْأَخْيَارِ وَالصَّالِحِينَ، يَكُونُ قَدْوَةً لِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَيَكُونُ قَدْوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَكُنْ ذَلِكَ الرَّجُلَ، لَا تَتَمَنَّي الْمَوْتَ لِلضَّرِّ وَالشَّدَةِ، وَلَكِنْ اسْأَلِ اللَّهَ الثَّبَاتَ، وَاسْأَلِ اللَّهَ الْمَعُونَةَ.

يَمْرُ عَلَى الْعَبْدِ الْبَلَاءَ، لَوْ أَنَّهُ تَفَكَّرَ أَنَّ كُلَّ سَاعَةٍ، بَلْ كُلِّ ثَانِيَةٍ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ، كُلُّهَا: إِمَّا تَكْفِيرَ لَذَنْبٍ، أَوْ رَفْعَةَ لَدَرَجَةٍ، فَهُوَ عَلَى خَيْرٍ: **((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَمَرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ))**، مِمَّ يَجْزَعُ؟! وَمِمَّ يَفْزَعُ؟! وَالْحَسَنَاتُ تَكْتُبُ، وَالدرجات ترفع، وَإِذَا رَأَى أَهْلَ الْبَلَاءِ مَا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ، وَالْمَثُوبَةِ إِذَا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ -، وَنُشِرَتِ الدَّوَابِينُ مَلِيئَةً بِالتَّسْلِيمِ، وَبِالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ: **((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضَاهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ))**، قَدْ تَأْتِي الْبَلِيَّةُ لِلْإِنْسَانِ فَيَقَالُ لَهُ: مَعَكَ - أَجَارَكَ اللَّهُ - السَّرْطَانُ، فَيَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، رَضِيْتُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنِي، اللَّهُمَّ ارْبِطْ عَلَى قَلْبِي، اللَّهُمَّ أَحْسِنْ لِي الْفَرْجَ وَالْمَخْرَجَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ، رَبِّ عَلَيكَ تَوَكَّلْتُ،

وإليك أنبت، ويحسن الظن بالله، فتخرج هذه الكلمات حجةً له بين يدي الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

التسليم في المصاعب والمصائب والمتاعب أمر عظيم ترفع به الدرجات، وتكفر به الخطيئات، ويظهر به صدق المؤمنين والمؤمنات: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}، ونسأل الله بعزته وجلاله أن يجعلنا ذلك الرجل.

أما هذا الدعاء فسأل العبدُ ربَّه أحدَ أمرين: إن كان الخير له في الحياة: أن يبقيه، وإن كان في بقائه شر: أن يتوفاه، وهذا من خير ما يكون من الدعاء.

((اللَّهُمَّ، أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي)): إذا ينبغي لكل مؤمن أن يعلم أنَّه لا قيمة للحياة إلا إذا كانت خيرًا وطاعة وبرًا، ما خلقنا الله للهو واللعب، ما خلقنا الله لعبث العابثين، وصخب الصاخبين، ما خلقنا الله لكي نضيع الأوقات والساعات واللحظات فيما لا طائل له ولا نائل، وإنما خلقنا الله لعبادته وتوحيده وطاعته.

ونسأل الله بعزته وجلاله أن يبارك أعمارنا، وأن يبارك أقوالنا وأعمالنا، وأن يسلمنا إلى خير، وأن يعيذنا من حياة لا ترضيه عنا.

ولذلك أمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المؤمن أن يسأل ربَّه الخيرَ في هذه الدنيا، وكان من جوامع الدعاء التي حُفِظَتْ عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، حتى كان أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: ((كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))، قال: ((وكان أنسٌ إذا صَلَّى، أو دعا بدعواتٍ جعلَ فيهنَّ هذه الدعوة))، أن تسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- الحياة التي يكون فيها رضاه، ومحبه والقرب منه -جَلَّ جَلَالُهُ-؛ لأنَّ الله ما خلقنا إلا لذلك: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

اللهم إنا نسألك أن تبارك لنا فيما بقي من أعمارنا، وأن تثبت قلوبنا بما يرضيك عنا، اللهم اصرف عنا الفتن والمحن ما ظهر منها وما بطن، نسألك بعزتك وقدرتك وجلالك وعظمتك أن تصرف عنا كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، وحقد الحاقدين بما يشغلنا عن طاعتك ومرضاتك يا أرحم الراحمين، ووفقنا لمحبتك ومرضاتك؛ إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْحَكِيمُ.

قال الإمام أبو عيسى الترمذي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : [بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّعَوُّذِ للمريض].

قال - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : حَدَّثَنَا يَشْرُ بْنُ هِلَالٍ الْبَصْرِيُّ الصَّوَّافُ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : ((أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ وَعَيْنٍ حَاسِدٍ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ)).

الشرح:

يقول المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّعَوُّذِ للمريض] التَّعَوُّذُ: هو طلب العوذ، والعوذ: هو الالتجاء والاعتصام، ولا ملجأ ولا عصمة للعبد إلا بالله - جَلَّ جَلَالُهُ -، فهو وحده الذي يعيد من استعاده، ويحير من استجاره: {قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ}، فهو الله - جَلَّ جَلَالُهُ -، وهذا من توحيد الألوهية أَنَّ العبد إذا استعاذ يستعيد بالله، وإذا استجار يستجير بالله، وإذا طلب الأمن، أو طلب خيراً، إذا طلب خيراً، أو دفع شرّاً، فَإِنَّهُ لَا يَطْلُبُهُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - ولما كان المرض الذي يسبق الموت يحتاج المؤمن فيه إلى ما يوطنه ويقويه على تحمل البلاء، وما يكون سبباً في دفع الشر عنه.

أورد المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ - هذا الباب: [التَّعَوُّذُ للمريض]، وهو أقرب ما يكون لباب الرقية، اشتمل على هدي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسنته في الرقية والدعاء، وإن كان سيذكر المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ - أبواب أخرى فيما سيأتي، ولكن هذا الموضوع يُحتاج إلى التنبية إلى هذا الأمر ولو بقدر، لكن محلّ هذا الباب إنما هو في باب (الدَّعَوَاتِ)، وأفرد لها المصنف كتاباً خاصاً (كتاب الدَّعَوَاتِ) أورد في السُّنَنِ وهدي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الدعاء عموماً.

لكن هنا في التَّعَوُّذِ للمريض أَنَّ الناس من عادتهم إذا نزل البلاء والمرض والسقم، تارة يلجأون إلى ما يحصنون به المرضى، فمنهم المصيب، ومنهم المخطئ:

أَمَّا من أصاب: فهو الذي يدعو ربَّ الأرباب، ويستعيد بالله - جَلَّ جَلَالُهُ -، متبعاً هدي السنة والكتاب فهذا هو الحري بالهدى والصواب، أن يبحث عن هدي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسنته فيما ورد

من الأدعية الصَّحيحة للمريض، ومن فعل هذا فقد نصح لمريضه، فإذا كان المريض أباً أو أمّاً فقد برَّ والديه، فمن برَّ الوالدين أن يكون الابنُ متبعاً للسنّة في رقية الوالدين، والتَّعوذ للوالدين، وهدى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في ذلك أكمل الهدى وأجمعه، ومنه هذه الدعوات العظيمة.

وفي الحقيقة أدعية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اشتملت على أمورٍ عظيمةٍ جداً: وأعظمها وأجلها وأشرفها وأقدسها على الإطلاق: الإخلاصُ لله -جَلَّ جَلَالُهُ-، الذي تنحلُّ به العقد وتزال به الكربات، وتدفع به المصائب والمصاعب والملمات، فليس هناك شيءٌ يُذهِبُ الله به البلاء أعظم من توحيده، حتى إنّ المشركين وهم عبدة الأوثان لما أخلصوا لله الدعاء فرَّجَ الله كربهم، وأزال الله عنهم ما يجدون، فهذا هو الحبل المتين، والصراط المستبين، من تمسك به نجا ومن استعصم به فقد أصاب الخير كله.

من الناس من يصيب هذا الأصل العظيم، ومنهم -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- من يذهب يميناً وشمالاً: {يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ}، {يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ} ولذلك كان في جاهليتهم الجهلاء يذبحون للجن، ويستعيذون بالجن، ويضعون الطلاسِمَ ويضعون الحجب والكلمات والعبارات التي لا تُفهم ولا تُعرف، فأبدلنا الله -جَلَّ جَلَالُهُ- بهذا الصفاء وهذا النقاء، وهذا الخلوّ الذي لا شائبة فيه، أبدلنا الله هذا الخير العظيم من ذكر اسم الله -عَزَّ وَجَلَّ-. ((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)): ليس هناك شيء أعظم بركةً من أسماء الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، ولذلك قال تعالى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}، فما وضع الله من البركة في أسمائه الحسنى وصفاته العلى فهو الخير العظيم والبركة التامة الكاملة، فإذا سأل العبدُ ربّه يسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ومن أعظم العوذ بأسماء الله وصفاته.

ولذلك ثبت في الحديث الصحيح من العوذ الثابت قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في هديه في المساء والصباح، وأيضاً في حديث خولة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- في المنزل: ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ))، فهذا يدل أن أعظم العوذ وأكمله وأجله: هو العوذ بأسماء الله وصفاته، فأسماء الله تامة كاملة، وصفاته -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- تامة كاملة فمن استعاذ بها أعاده الله، ومن سأل بها أعطاه الله، فهي الوسيلة إلى الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، مما يتوسل به إلى الله أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته.

واستفتح الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذه الرقية لنبهه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فقال: ((أَنْ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ

-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ))، ((أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)) كرامة من الله -جَلَّ جَلَالُهُ- أرسل الروح الأمين إلى سيد الأولين والآخرين: ((اشْتَكَيْتَ؟)) منزلة ما بلغها أحدٌ، أكرمه الله بهذه الكرامة، قال لأُم سلمة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: ((أَمَّا عَمَلِي أَيْ خَيْرُهُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ)).
أرسل إليه الروح الأمين: ((اشْتَكَيْتَ؟))، وهذا يدل على عظيم ما اختصَّه الله من المنزلة -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

والشكوى تكون بسببٍ، وغالباً يعبر بالشكاية عن المرض والسقم والألم. وينقسم إلى القسمين: إمَّا أن يكون حسيًّا: كالجرح، وإمَّا أن يكون روحيًّا: كالضيق، ونحو ذلك مما يصيب النفس.

((اشْتَكَيْتَ؟)) هذا جارٍ مجرى الاستفهام والسؤال، يعني: (هل تشتكى؟) وهذا فيه دليل على جواز أن يخبر الإنسان عما أصابه من البلاء، وعما نزل به من العناء. ومن يشتكي على حالته:

إمَّا أن يشتكي إخباراً ورجاءً أنَّ أخاه المسلم يدعو له، أو يعذره في تقصير، فهذا لا بأس به وثبت به السنة، وإمَّا أن يشتكي -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- تسخطاً وتذمراً، فهذا محرَّمٌ شرعاً، أن يشتكي -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- تسخطاً على القضاء والقدر، وهذا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- كمن يشتكي ربَّه على الخلق. ونصَّ العلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- على أنَّه لا يجوز التشكي على سبيل التسخط والتذمر من قضاء الله وقدره. ((قَالَ: نَعَمْ))، والسؤال معادٌ في الجواب، أي نعم أشتكى، وهذا كما ذكرنا فيه جواز إخبار الإنسان عما أصابه.

واختلف العلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ-: هل الأفضل أن الإنسان لا يخبر بما أصابه، ويتوكل، أو يأخذ بالأسباب، فيشتكي، ويعرض نفسه على الأطباء، ويتطبب؟

أمَّا من حيث الأصل في أصل هذه المسألة: فإنَّ أئمة السلف والإجماع منعقد على أنَّ مَنْ اشتكى ولم تكن شكواه على سبيل التسخط والتذمر أنَّ هذا لا يقدر في التَّوْحِيد، ولا يقدر في الإيمان لأنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو إمام المتوكلين وسيد الأولين والآخرين كما ثبت في الصحيح لما قالت أم المؤمنين عائشة: ((وَأَرْأَسَاهُ، قَالَ: بَلْ أَنَا وَارَأَسَاهُ)) -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

فهذا يدل على مشروعية أن يشتكي الإنسان ما دام أنه على سبيل الإخبار، أو على سبيل الأخذ بالسبب من العلاج والتداوي، أو رجاء أن يدعو له أخوه بدعوة صالحة، ونحو ذلك من المقاصد الحسنة، أنه لا بأس به ولا حرج.

((قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)): فيه دليل بأن الرقية تكون بأسماء الله وصفاته.

((قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)): والوارد أفضل من غير الوارد بالنسبة للأسماء الحسنى والصفات العلى، فإذا دعا بهذا الوارد فهو أفضل؛ لأنه يُكْتَبَ له أجرُ المتابعة للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وينال خير وبركة في السنة، وغير الوارد أن يقول: يا لطيف، يا لطيف، يا رحيم، يا رحيم، ونحو ذلك من الالتجاء بأسماء الله وصفاته الثابتة في الكتاب والسنة، هذا لا بأس به، جائز.

ولكن أفضل وأكمل أن يقول بالوارد، مثل قول: ((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)).

((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)): فيه دليل على مسائل:

المسألة الأولى: مشروعية الرقية، وهي محل إجماع بين العلماء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -، أن الرقية مشروعة لأن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَقَى.

وكذلك أيضًا علم أمته ما يُرْقَى به، كما في حديثنا، حيث أخبر عن هذه الرقية التي نزل بها جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ -.

وفي حديث أم المؤمنين عائشة أنه كان من رقيته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - للمريض: ((أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي)).

وقال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ويَعِدُهُ بعض العلماء في حكم الرقية: ((مَنْ عَادَ مَرِيضًا فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، شَفَاهُ اللَّهُ..)) إلى آخر الحديث.

كل هذا يدل على مشروعية أن يري الإنسان أخاه المسلم الرقية الشرعية، وهذا محل إجماع بين العلماء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - أن الرقية جائزة ومشروعة.

المسألة الثانية: أن محل الجواز يختص بالوارد، بمعنى أن تكون الرقية مشروعة، لا ممنوعة، والمشروع منها ما ذكرناه بأسماء الله وصفاته، وما ثبت في الأحاديث عن رسول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - من الأدعية الصحيحة.

وأما بالنسبة للرقية غير المشروعة: فهي التي تكون بالحرور والطلّاسم والشركيات - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - والالتجاء إلى الجن، والاستعانة بهم، هذا كله محرم، لا يجوز للمسلم أن يفعله، ولا أن يأذن به أن تكون

الرقية مشتملة على الاستغاثة بالجن، والاستعاذة بهم، فهذا يصل إلى الشرك الأكبر -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- المخرج من الملة، أَنَّهُ إِذَا سَأَلَ الْعَبْدُ الْجَنِّ، وَاسْتَغَاثَ بِهِمْ، وَاسْتَجَارَ بِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، أَوْ شَرَكَهُمْ مَعَ اللَّهِ، فَاعْتَقَدَ نَفْعَهُمْ وَضَرَهُمْ مَعَ اللَّهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-، فَهَذَا شَرْكٌ أَكْبَرُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، فَيَنْبَغِي الْحَذَرُ.

وهذا يفعله -نسأل الله السلامة والعافية- السَّحَرَةُ وَالْمَشْعُودُونَ، وَلِذَلِكَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَيَلْبَسُونَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، وَيُعْطَوْنَهُمُ الْحُرُوزَاتِ وَيُعْطَوْنَهُمُ التَّمَائِمَ، وَقَدْ أَخْفَى فِيهَا مَا يَغْضِبُ اللَّهَ -جَلَّ جَلَالُهُ- وَيَسْخِطُهُ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَقْبَلَ هَذَا.

ولا يجوز للمسلم أن يقبل من أحدٍ أن يرقيه ما لم يسأله عن هذا الذي يرقيه، ويستبين عنه، خاصة عند فساد الزمان، فلا يُعَذَّرُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى كُلِّ مَنْ هَبَ وَدَبَّ، وَيَأْخُذُ مِنَ الطَّلَاسِمِ وَالْحُجُبِ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا فِيهَا، بَلْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَحْتَاطَ لِدِينِهِ، وَأَنْ يَسْتَبِرَّ لِدِينِهِ، وَأَنْ يَتَّعِدَ عَنْ حُدُودِ اللَّهِ وَحِمَى اللَّهِ: ((أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ)) وَأَعْظَمُ حَرَمَةً، وَأَعْظَمُ حَقًّا هُوَ حَقُّ اللَّهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-، وَهَذَا الْحَقُّ يَنْتَهِكُ وَيُضَيِّعُ، فَكَانَ بِهِ الظُّلْمُ أَعْظَمُ الظُّلْمِ حِينَمَا يُصْرَفُ حَقُّ اللَّهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-.

كيف يرضى المسلم أن يأتي إلى شخص كافر مشرك بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، يجعل له حجباً فيها الاستغاثة والاستعاذة بالجن، وسؤالهم النفع، ودفع الضر -نسأل الله السلامة والعافية-، مما هو حق الله -جَلَّ جَلَالُهُ-؟ هل طردنا الله عن بابه؟ حاشاه: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ}.

الرقية غير المشروعة: هذه محرمة بإجماع العلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ-.

المسألة الثالثة: في قوله: ((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)) دليل كما ذكرناه على أَنَّ الرقية تكون بأسماء الله وصفاته.

وتنقسم هذه الأسماء والصفات إلى قسمين:

أن يكون فيها دعاء خاص من النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مثل قوله: ((أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبِّ النَّاسِ، أَشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي))، و((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ))، ونحوها من الوارد.

ومثل: المعوذتين، فإنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يتعوذ كما في الصحيح من حديث أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا))؛ لعظم ما فيها من البركة والخير، من

قرأ المعوذتين في البلاء والشدة، معتقداً لمعناها حاضر القلب، قوي اليقين بالله، والله لن يخيب، وسيجعل الله له من بين أطباق السماوات والأرض فرجاً ومخرجاً؛ لأنَّها عوذٌ من الله عظيم.

إذا نزل البلاء بالعبد فاستعاذ بها؛ لأنَّ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قالت: ((تَرَكَ مَا سِوَاهُمَا)) ترك ما سوى المعوذتين، وهذا يدل على أنَّها من أفضل الرقية.

وكذلك من أفضل الرقية: الرقية بالفاتحة، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ لَمَّا سَأَلَ بِمَا رَقَى فَقِيلَ لَهُ: ((بِمَا رَقَيْتَهُ؟)) قَالَ: **بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟!!**) خير عظيم، وفضل كريم من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فالفاتحة فيها خير كثير في الرقية، ولكن سر هذا الخير وفاتحته في يقين العبد، بمعنى الفاتحة حينما يقرأ الفاتحة يستحضر معاني الفاتحة ويقرأها بقلب خاشع فإنه إذا قرأها على هذه الصفة، وتدبر ما في هذه الآيات من المعاني، فإنَّ فيها نفع عظيم لمن يرقى ومن يُرْقَى، وهذا أمر مجرب ومعروف أنَّ فاتحة الكتاب هي من أفضل ما يرقى بها، ونحو ذلك من آيات الله العزيز.

فالمقصود أنَّ هذا الحديث يدل على مشروعية الرقية، وأن تكون الرقية بالوارد بالشيء المشروع والثابت. وقد توسَّع الناس في هذا، يعني في الرقية، ومنهم من اتخذها -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- تجارة، فيرقى الناس على قصد المال، لا على قصد نفعهم، قصده المال، وليس قصده النفع.

وأما من كان قصده نفع المسلمين، وجاءه الخير والمال تبعاً: فهذا لا يضره؛ لأنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَفَرَّ أَبَا سَعِيدٍ حِينَمَا سَأَلَ الْجُعْلَ عَلَى رُقِيَّةٍ سَيِّدِ الْحَيِّ، وَقَالَ: لَا نَرْقِيهِ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً، فَجَعَلُوا لَهُمْ جُعْلاً مِنَ الْغَنَمِ، فَرَقَى، فَلَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْجُعْلِ، قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ)) فهو يدل على مشروعية أخذ الجُعْل. لكن أبا سعيد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان قصده أولاً: أنَّ هذا وإن كان كافراً، فإنَّ هذا يدل على صدق نبوة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فله غرض صحيح، وجاءت الدنيا تبعاً. وعند العلماء أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْغُرْضُ صَاحِحاً وَجَاءَتِ الدُّنْيَا تَبَعاً لَا يَضُرُّ.

ولذلك جعل الله للمجاهد الغنيمة، مع أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُجَاهِداً إِلَّا إِذَا قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعِلْيَا وَقَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَهُمْ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْجِهَادِ: **{وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّكُمْ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}** وهي العير، ومع ذلك هم مخلصون، ويريدون الأجر من الله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

فالمقصود أنه إذا رَقِيَ، وكان نفع الدنيا تبع: فلا يضر.

وهنا مسألة: أن أخذ الجُعْل على الرقية الذي ثبتت به السنة، ثبتت على سبيل الجُعْل، والجُعْل فيه فرق بينه وبين الإجارة:

والجُعْل: لا يستحق إلا بعد تمام العمل، فلا يجوز أخذ الجُعْل إلا بعد وجود الشفاء، وهذا هو المتفق عليه بين العلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ-، كلهم مجمعون على أن من قال لشخص: (إذا رقيت مريضاً، وشُفي، سأعطيك مئة ريال أو ألف دينار أو ألف درهم) أنه لا يستحق شيئاً إلا بالشفاء، بعد أن يشفى تماماً. وهذا أصلٌ عند العلماء، ولذلك أبو سعيد ما أخذ الجُعْل إلا بعد تمام الشفاء.

وأما الإجارة: فإنها تنقسط بحسب العمل، ولذلك لو أن شخصاً استأجر شخصاً، ثم مات أثناء العمل، استحق بقدر ما أنجز من العمل، لكنه لو قال له: (أعطيك جُعْلاً، على أن تبحث لي عن بعيري الشارد، وعبدي الآبق، أو عن سيارتي المفقودة، أو ابحث لي عن ساعتى المفقودة، وإذا وجدتها أعطيك مئة ريال)، فظل يبحث سنين، ولم يجد الساعة، لم يستحق شيئاً بإجماع العلماء.

والأصل في الجعل: قوله تعالى: {وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلٌ بِعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ}، وحديث أبي سعيد الذي معنا.

المشكلة أن البعض أدخل الإجارة في الجُعْل، وتفنن البعض في أخذ أموال الناس في الرقية؛ لأن الرقية تقوم على أمرٍ غيبي، ومن هنا لا تستطيع أن نجعلها من باب الإجارة، تقوم على أمرٍ غيبي؛ لأنها متعلقة بالأرواح، فهو يقرأ على المريض الممسوس أو المعيون، وهذا أمرٌ غيبي: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}، فهو لا يعلم هل شُفي شفاء تاماً، وإنما يعمل على الدلائل الظاهرة.

فالمشكلة أين؟

المشكلة حينما يقول له: (تأتيني وتجلس عندي جلسات، وكل جلسة بخمسين ريال)، هذا ما يصح؛ لأن هذا لا يأتي إلا على طريق الإجارة.

لو كان طبيباً يعالج البدن بالطب الطبيعي، يمرنه مثلاً كالمشلول، في العلاج الطبيعي يقول: (كل جلسة بمئة)، ومعروف ما هو الذي يقوم به هذا الطبيب في العلاج الطبيعي، جاز ذلك إجارة؛ لأن العمل والنتيجة موجودة، وليس فيها أكلٌ للمال بالباطل، مألٌ في مقابل عمل.

لكن حينما يقول له: (تعال عندي، وأنا أرقيك، مثلاً: كل جلسة أقرأ عليك الفاتحة بخمسين ريال)، هذا لا يعتبر إجارةً، ولا يصح؛ لأن الوارد في الرقية الجُعْل، ولم يرد فيها الإجارة، ولذلك كتاب الله وكلام

الله -عَزَّ وَجَلَّ- ليس محلاً للبيع والشراء: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}، {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ}، فهذه الآيات لم تُنَزَّلْ لأجل أن يباع بها ويشترى، وإنما جاء الجُعْلُ فيها لما فيه من النفع، لكن بشرط: أن يتحقق الشفاء.

لو أنَّ شخصاً رَقِيَ شخصاً، فقام الشخص الذي رُقِيَ وأعطى من عنده خمسين أو مائة، وهو لم يُشْفَى، فهذا لا باس فيه، ولا حرج، والأفضل أن يتورع عن أخذه، ولا يأخذ إلا بعد الشفاء. هذا أمر مهم جداً أنَّ الجُعْلَ لا يُسْتَحَقُّ إلا بعد الشفاء وهذا منصوصٌ عليه عند العلماء -رَحِمَهُمُ اللهُ- وتكلم عليه الأئمة في (باب الجُعْل).

الرقية من باب الجُعْل، وأمَّا فتح ملفات، وأنه يأتي، وكلما يأتي يدفع خمسين ريال، وأربعين ريال، ويجلس ويأخذ هذا الجالون وهذا الزيت، هذا بيع وشراء، وليست رقية، وهذه فتنة لمن يقوم بالرقية، فينبغي التنبه لهذا، المسائل الشرعية تضبط بضوابطها. إذا رَقِيَ وأخذ الأجرة على الرقية يأخذها بعد تمام الشفاء والعافية خاصة إذا كانت جُعْلاً وعلى سبيل المشاركة.

أمَّا إذا كان إجارة: لا يُعرف في الرقية إجارة، وإنما المحفوظ أنها تكون جُعْلاً، قال: ((واجعلوا لنا جُعْلاً))، والجُعْلُ يُسْتَحَقُّ بعد التمام.

بالنسبة للجُعْل والإجارة، الإجارة تكون في الأشياء التي تُجَزَّأ: إمَّا بالزمان: مثل أن تستأجر الشخص يشتغل عندك يوماً أو شهراً، التي هي المياومة والمساكنة والمشاهدة. أو تستعمله بالعمل: تقول له: (ابن لي هذا الجدار مترًا في مترين، في ثلاثة، وأعطيك كذا، وكذا) هذه إجارة، أو خُطَّ لي هذا الثوب أو هذا القماش، هذه إجارة. في هذه الحالة إذا وقعت الإجارة على سننها يُسْتَحَقُّ.

لكن الجُعْل يأتي في الأشياء التي فيها مخاطرة، يحتمل أن تقع، ويحتمل أن لا تقع، كأن يقول: (ابحث لي عن الشيء المفقود، كتابي، أو ساعتني، أو سيارتي، أو ولدي، فإذا جئت بولدي، أو سيارتي، أو بساعتني، أعطيك ألف ريال)، {وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ} الذي هو صواع الملك، قال: {وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ} هذا في الشيء المفقود.

لكن انظر في الإجارة تكون في شيء واضح معلوم، هذا الفرق.

ولذلك الشريعة من أدق ما تكون في المعاملات، حفظت حقوق الناس وأموالهم، ولذلك الشخص حينما يأتي بمريض إلى من يرقى فيأتي ويقراً عليه، ربما يكون المريض عضوياً وليس مرضاً متعلّقاً بالرقية، فيأتي ويأخذ الخمسين ريال والمئة ريال، بأي حق؟

قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما في الصحيح من حديث أنس: ((أَرَأَيْتَ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ، بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ؟))، قرأ عليه القرآن، ثم الرجل بقي كحالته هو هو، ويصرع كما كان، ولم يجد أي جديد، بأي حق يؤخذ المال؟

الكتاب نصّ على هذا: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}، والباطل يقولون: بدون وجه حق، فإنه إذا دفع هذا المبلغ، وألزمه بدفع الخمسين والمئة، بأي شيء، بأي مقابل؟ ((أَرَأَيْتَ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ، بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ؟)) فدل على أنه إذا اتَّفَقَ على شيء لا يستحقه إلا بعد وجود هذا الشيء. ونحن نقول هذا؛ تنبيهاً؛ لأنَّ البعض يخلط في هذه المسائل، ولا بد من بيان حكمها شرعاً؛ حتى يكون فيه إعداؤٌ إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

أنَّ الرقية إذا كان يبحث الإنسان عن أخذ المال فيها فإنها تشرع على سبيل الجعالة، والجعالة تستحق بعد تمام الشفاء والعافية، ونسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يكفيننا بحلاله عن حرامه. ((مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ)): فيه دليل على أن اسم الله يصرف الأذى، وأنه حرز من الأذى، وأن من وجد الأذى فإنه يستعين بالله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)): هذا عموم، ((يُؤْذِيكَ)).

((مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، وَعَيْنٍ حَاسِدٍ)): قال بعض العلماء: النفس هي العين، وأعادها على سبيل التوكيد، وبناء على ذلك تكون هذه الرقية من العين، وهذا هو الأصل أنه: ((لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ))، وهي أشد وأكاد ما تطلب له الرقية العين، وكذلك اللدغ كما ورد في حديث سيّد القوم. وفي هذا دليل على مسائل:

المسألة الأولى: أن العين حق، وقد ثبتت السنة عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ)).

وثبت في الحديث الصحيح عن سهل بن بيضاء أنه خرج مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في غزوته في تبوك أو خيبر، وجلس يغتسل، وكان سهل أبيض البشرة، ناصع البياض، فمرَّ عليه رجلٌ فقال: ما رأيت كالיום ولا جلدَ عذراء، فسقط سهلٌ محمومًا في مكانه، فلمّا أراد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

أن يرتحل أخبروه أن سهلاً محموم، فأخبروه بقصة الرجل أنه مرَّ وقال كذا وكذا، فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((عَلَيَّ بِهِ)) فَأُتِيَ بِالرَّجُلِ وَقَالَ لَهُ: ((عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَا بَرَكْتَ؟)) أي قلت: (ما شاء الله، تبارك الله)، ثم قال له: ((اغْتَسِلْ لَهُ))، فأمره أن يغتسل فاغتسل، فأمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بمائه، فَصُبَّ عَلَى سَهْلٍ، فقام كأنما أنشِطَ من عَقَالٍ، كأن لم يكن به بأس. وهذا يدل على أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، وَأَنَّهُ مِنَ السَّنَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى أَمْرًا يَعْجِبُهُ أَنْ يَقُولَ: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله)، كما هو في التنزيل: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}، فيقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله)، أو يقول: (ما شاء الله، تبارك الله)؛ لقوله: ((هَلَا بَرَكْتَ عَلَيْهِ؟)). وإذا قال العبد: (ما شاء الله، تبارك الله) فَإِنَّهُ يَخْنَسُ الشَّيْطَانَ؛ لِأَنَّهُ يَخْنَسُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ، لكنه إذا لم يذكر الله تبعها الشيطان، كما جاء في الحديث: ((الْعَيْنُ حَقٌّ وَيَحْضُرُ بِهَا الشَّيْطَانُ))، فيصاب الإنسان بإذن الله وقدره الله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

فقال: ((مَنْ شَرَّ كُلِّ نَفْسٍ، وَعَيْنٍ حَاسِدٍ)) أو تكون النفس عامة، وهذا يكون من باب عطف الخاص على العام: ((مَنْ شَرَّ كُلِّ نَفْسٍ)) أي أَنَّهُ اسْتِعَاذَ مِنْ شَرِّ الْأَنْفُسِ كُلِّهَا، وَشَرِّ الْحَاسِدِ وَشَرِّ عَيْنِ الْحَاسِدِ عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، فالحاسد هو الذي يحسد، وينظر بعينه -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

ولا يجوز للمسلم إذا علم أَنَّ عَيْنَهُ تَصِيبُ، وَأَنَّهُ عَائِنٌ، لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوْذِيَ إِخْوَانَهُ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي ذِكْرِ اللَّهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-، كَلِمَا سَمِعَ شَيْئًا أَعْجَبَهُ، أَوْ رَأَى شَيْئًا أَعْجَبَهُ، يَقُولُ: (ما شاء الله، تبارك الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله)؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْكَرَ هَذَا، فَقَالَ: ((عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟)).

وإذا قصد ذلك وعناه، فَإِنَّهُ يَأْتِمُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرٌ مَا يَنْتِجُ عَنْ عَيْنِهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَاطَى السَّبَبَ الْمَفْضِي لِلضَّرَرِ.

وفي قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((مَنْ شَرَّ كُلِّ نَفْسٍ، وَعَيْنٍ حَاسِدٍ)) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ تَصِيبُ كَمَا ذَكَرْنَا، وَأَنَّهَا قَدْ تَوْرَدُ الْإِنْسَانُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- الْقَبْرِ، وَهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ.

واختلفوا: ما هي حقيقة العين؟

قال بعض العلماء: إِنَّهُ إِذَا نَظَرَ الْإِنْسَانُ خَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ كَالسَّمِّ، فَيَقْتُلُ الْمَنْظُورَ.

وقال بعضهم: إِنَّهُ يَوْجَدُ فِيهِ مِثْلُ مَا يَوْجَدُ فِي الْحَيَّةِ الَّتِي تَخْطِفُ الْبَصَرَ، وَتَسْقُطُ الْجَنِينُ.

وهذا في الحقيقة كله من أمر الغيب الذي لا ينبغي الخوض فيه، الله أعلم كيف تصيب الأعين وكيف تؤثر، ولا يتكلف الإنسان البحث عن هذه المسائل؛ لأنها أمورٌ غيبيةٌ، وينبغي في العلم الكف عن التكلف الذي ليس فيه دليل واضح يبين حقيقته؛ لأنَّ هذا أمر ليس راجعاً إلى المحسوسات، وإنما أمر معنويٌّ خفيٌّ، فالتسليم فيه ورد علمه إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو المنبغي للمسلم لا يقول: إيش حقيقة العين؟ وكيف تصيب؟ وكيف تؤثر؟ هذا أمر علمه عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وقد يصيب العائن نفسه -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- كما قصَّ الله في كتابه في سورة الكهف في الرجل لما دخل جنته: {قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} فتعين -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، ولذلك قال: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}، فهو حسد نفسه -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

فالعائن الذي لا يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- يقتل نفسه، ويقتل أهله وولده، ومن يحيط به، فينبغي للمسلم أن ينتبه لهذا، أنَّه إذا رأى شيئاً يعجبه أن يقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ما شاء الله، تبارك الله). ((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ))، ((بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ)) كررها مرةً ثانيةً.

((وَاللَّهُ يَشْفِيكَ)) فيه دليل على أنَّ الشفاء بيد الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، وهذا يدل على الحصر، على أنَّه لا يشفي إلا الله.

ولذلك قال في حديث عائشة: ((اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ)).

ولو أنَّ أطباء الدنيا كلهم أجمعوا وأطبَّقوا على علاج إنسان بأبسط الأمور، وأبسط الأسقام والعلل، ولم يأذن الله بشفائه لم يُشف، ولو أنَّ ما في الأرض كلها من الأطباء اجتمعوا على إنسان كتب الله له الشفاء، وقالوا: لا يُشفى، يشفيه الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، وهذا كله يدل على قدرة الله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

وأذكرُ: أنَّ رجلاً أدخل العناية، فقيل: إنَّه ميت، ودخل عليه رجل، فرقاه بالرقية الشرعية، حاضر القلب، يقول له ابنه: كيف ترقيه؟ ترى ما نبغى نكلف عليك، هذا يقولون: إنَّه ميت فقال له: الذي عند الأطباء شيء، والذي عند ربِّ العالمين شيء آخر، فدخل متوكلاً على الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فدخل عليه ورقاه الرقية الشرعية، وخرج من عنده فإذا به بعد عشر دقائق يتصل عليه يقول: الوالد خرج من العناية، وأدخلوه الغرفة وهم واضعون الأنبوب للنسم منه، ثم بعدها بأسبوع أخرجوا الأنبوب، ورد يتنسم طبيعي، وعاش بعدها ثماني سنوات، وهو في السبعين في آخر عمره، ما يعجز الله شيء.

فَكَمْ مِنْ طَبِيبٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ

يموت الطبيب، ويعيش المريض، دلَّ على أنَّه ليس بيد أحد شيء، الأمر كله بيد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وهو الذي يشفي، وهو الذي يكفي، فهنيئًا، ثم هنيئًا لمن أذاقه الله حلاوة الإيمان، وعَرَفَ وتعرَّفَ على الله -جَلَّ جَلَالُهُ- بكرمه وجوده ولطفه بخلقه، ليس هناك أحدٌ أبَرَّ بخلق الله من الله -جَلَّ جَلَالُهُ- ولذلك من صفاته أنَّه البر الرحيم، البر؛ لأنَّه يبرُّ خلقه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فتأتى وتحس أنَّ الأب وأنَّ الأم وأنَّ الأخ وأنَّ الأخت وأنَّ الابن وأنَّ البنت تشتكي، وتحس بحنانك ورحمتك فإذا ما في قلبك من الحنان والرحمة والشفقة والألم لا يساوي ذرَّةً من عشر معشار عشر العشر المعشر من عشر الذرة من عشر معشار إلى ما لا منتهى منه من رحمة الله -جَلَّ جَلَالُهُ- ما يأتي شيء، ولذلك ليس هناك إلا الثقة بالله -جَلَّ جَلَالُهُ-، والتوكل على الله، وصدق اللِّجَأَ إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((وَاللَّهُ يَشْفِيكَ)): أي أنَّه لا أحد يشفي غير الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، ولذلك لا يجوز أن يُعتقد أنَّ أحدًا يشفي من دون الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، وإذا وجد الإنسان أنَّ الطبيب نافع، وأنَّ الله وضع له التيسير والإصابة، فعليه أن لا يعتقد أنَّ الطبيب يشفيه من دون الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، فإنَّ الله يخيب ظنه، ولذلك عليك أن تكون على كمال التوحيد والتسليم.

وليس الرجوع إلى الأطباء بقادح في التوحيد والإيمان، ولذلك سيد الموحدين وإمام المتقين -بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين- تطبَّب، وجاءه الأعراب في حديث أسامة بن شريك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: ((جاء الأعرابُ من هَا هُنَا وَهَا هُنَا، قالوا: يا رسولَ اللهِ، أَنْتَدَاوَى؟ فقال: تَدَاوُوا عِبَادَ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ مَا أَنْزَلَ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً))، فهذا يدل على أنَّه فضل من الله -جَلَّ جَلَالُهُ- وأنَّه أنزل الداء والدواء، وأطلع هذا المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره نفعًا ولا ضرًا، أطلعه على هذا الشيء الذي فيه الشفاء، وفيه العافية، لكن أن يكون هو الشافي، لا، الشافي هو الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، فهو -سبحانه- الذي يشفي، ولذلك قال: ((وَاللَّهُ يَشْفِيكَ))، فإذا نزل السقم والألم يعتقد الإنسان أنَّه لا يشفي إلا الله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

قال المصنف - رحمه الله تعالى - : حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ قَالَ : ((دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، فَقَالَ ثَابِتٌ : يَا أَبَا حَمْزَةَ ، اسْتَكَيْتُ ؟ فَقَالَ أَنَسُ : أَفَلَا أَرْقِيكَ بِرُقِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ ، مُذْهَبَ الْبَاسِ ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)) .
قال - رحمه الله تعالى - : وَفِي الْبَابِ عَنْ أَنَسٍ وَعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - .

الشرح:

((دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ)) : ثابت البناني ، وهو من أصحاب أنس بن مالك ، وكان يحبه كثيراً ، وكان أئمة الحديث يقولون : (لا أثبت من ثابت في أنس) ، وهو من أصحاب أنس الموثقون ، ويعتبر من إجلائهم ، وكان - رحمه الله - أياً في الصلاح والزهد .

مما أثر عنه : أنه كان لا يمر بمسجد إلا ويصلي فيه ، كان كثير الصلاة - رحمه الله برحمته الواسعة - وقيل : إن أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أوصى إذا مات أن يغسله ثابت ، فغسله - رحمه الله - .

((دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، فَقَالَ ثَابِتٌ : يَا أَبَا حَمْزَةَ ، اسْتَكَيْتُ ؟)) ، ((يَا أَبَا حَمْزَةَ)) : كنية أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وهذا من الإجلال ، أنه يجل الإنسان الذي له حق ، كالعلم ونحوه ، كبير السن ، فيكنى ، أو يدعى بما يليق به من الأوصاف .

((فَقَالَ ثَابِتٌ : يَا أَبَا حَمْزَةَ ، اسْتَكَيْتُ ؟)) : فيه دليل على مشروعية الإخبار بما يجده الإنسان .

((اسْتَكَيْتُ ؟)) : أي بي شكوى ، واشتكي ، وهذا فيه دليل كما ذكرنا على الشكوى ، وأنه إذا كان لغرض شرعي ، فإنه يعرض على أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ؛ حتى يبين له الهدي الشرعي ، وهذا شأن التلميذ مع شيخه ، والطالب مع العالم ، يخبره بالشيء وهو يريد أن يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله ، فقال له أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : ((أَفَلَا أَرْقِيكَ بِرُقِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟)) .

((أَفَلَا أَرْقِيكَ)) : أسلوب من الأدب الرفيع ، وهكذا كان أصحاب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يزينون السنة ، وهي في الزينة في أتم وأكمل ما يكون ، ولكن يزينونها بهذه الكلمات : ((أَفَلَا أَرْقِيكَ))

والنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: ((يَا غُلَامُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ))، و((أَلَا)): حرف تنبيه، وكأنه يستأذن من مخاطبه، وهذا من أعلى ما يكون وأسمى ما يكون في الأدب في الحوار والحديث.

((فَقَالَ أَنَسٌ: أَفَلَا أَرْقِيكَ)): فيه دليل على أَنَّ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كانت له رقية.

وفيه دليل على ما قدمنا من المسائل: من مشروعية الرقية، وَأَنَّ الرقية لها ألفاظ مخصوصة، ولها أذكار مخصوصة، ولذلك قال: ((بِرُقِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)) فدل على أَنَّ لها ألفاظاً مخصوصة.

((قَالَ: بَلَى)): وهذا فيه دليل على أَنَّهُ يجوز أو يشرع وَأَنَّ من هدي الصحابة - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - تشويق الإنسان للعلم، قال: ((أَفَلَا أَرْقِيكَ بِرُقِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟))، ومن الذي لا يشترق إلى رقية النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟! ولذلك لما قيل لثابت هذا، ولو قيل لرجل من أهل الخير، وأهل الصلاح - جعلنا الله وإياكم منهم -: ((أَفَلَا أَرْقِيكَ بِرُقِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟)) لطار شوقاً وحنيناً لسمع هذه الرقية، وهذا من أجمل وأكمل ما يكون في خطابهم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - لمن بعدهم.

((اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ))، ((اللَّهُمَّ)): أي يا الله، ((رَبَّ النَّاسِ)): هذه من صفاته - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنَّهُ رَبُّ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ.

((مُذْهَبَ الْبَاسِ)): فيه دليل على أَنَّ الْبَاسَ لا يذهب إلا الله - جَلَّ جَلَالُهُ -، وهذا يدل على أَنَّهُ ينبغي للمسلم إذا نزلت به البأساء والضراء أن يعلم أَنَّهُ لا يذهبها إلا الله - جَلَّ جَلَالُهُ -.

((مُذْهَبَ الْبَاسِ)): والبأساء إذا نزلت بالعباد نزلت لِحَكْمٍ، ولم تنزل عبثاً، وأعظم الحكم التضرع إلى الله: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا}، فالبلايا هذه، الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بيّن في كتابه هذا الأمر العظيم: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ}، فهو سبحانه ينزل البأساء، ويصيب بالضراء من أجل أن يُوحّد، ويُلتجأ إليه، ويُحتَمي به - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ ليظهر صدق الموحدين، وتوفيق الله لهم بالإخلاص والعبودية والاعتصام به - جَلَّ جَلَالُهُ -، ويظهر خذلان المخذولين - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - ممن يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره.

ولذلك الشفاء كل الشفاء على من كفر، الكافر إذا نزلت به المصيبة لا يدري أن يذهب: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ}، حيرة الكفر بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، لكن المؤمن بمجرد أن تنزل به الضراء يتوجه إلى الله؛ لأنه يعلم أنه لا يشفي إلا الله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي)): فيه إثبات صفة الشفاء لله -جَلَّ جَلَالُهُ-، أنه وحده الشافي، فهو سبحانه الذي يشفي، وهو الذي يكفي -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

في قوله: ((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي)) أثبت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لله -جَلَّ جَلَالُهُ- أنه يشفي، وشفاء الله -جَلَّ جَلَالُهُ- لا يُحْدُ بِحَدٍّ، قادر على كل شيء، ولذلك لا يظن العبد أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يشفي أشياء معينة، هو قادر على أن يشفي من كل شيء.

((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي)): ((أَلْ)) في ((الشَّافِي)) للاستغراق، استغرقت جميع ما يكون من صفة الشفاء، وهذا لا يليق إلا بالله -جَلَّ جَلَالُهُ-، المخلوق قد يشفي، لكن بإذن الله -جَلَّ جَلَالُهُ- إذا أذن الله له أن يشفي.

ولذلك لو أن أبرع الأطباء، وأقوى الدواء وُضِعَ للمريض ولم يكتب الله له الشفاء لم يشف، وهذا أمر مقرر حتى الأطباء يسلمون به، حتى إنهم في بعض الأحيان يحتاجون إلى نفسية المريض لتقبل العلاج، ويقولون: إنَّ العلاج لا يؤثر إلا إذا كان المريض عنده رضا وتسليم، وُجِدَ الطيب ووُجِدَ الدواء، ومع ذلك يقولون: نريد المريض معنا، وهم من أضعف ما يكونون.

والحقيقة أنه لا الدواء ولا الطبيب ولا المريض ولا نفس المريض، ولكن الله -جَلَّ جَلَالُهُ- هو وحده.

((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي)): فإذا أذن الله بالشفاء كان الشفاء، وإلا فلا.

((لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ)): هذه من كمال التوحيد، الإثبات والنفي، ((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي))؛ لأنه قد ثبت الشفاء لله، ويشرك مع الله غيره، لكن: ((لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ)) فهذا يدل على أنه وحده الذي يشفي وأنه مختص بذلك -جَلَّ جَلَالُهُ- فهو يشفي، وهذا الشفاء لا يكون إلا منه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ليس معه شريك.

((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ)): ومن هنا حري بالمؤمن الموحد أنه إذا برىء جسمه وانتصب عوده، واستقام أوده أن يحمد الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، وأن يشكر الله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

ولذلك والله إِنَّهُ للشَّجِي، والحزن والأسى أن تجد العبد يصاب بالمرض الذي يقضُّ مضجعه، ويذهب نومه، ويعكر صفوه، ويذهب به حوله وقوته، ثم يتأذَّن الله له بالشفاء، فيجريه على يد مخلوق ضعيف، فما أن يشفى إلا وهو يجلس في المجالس كل يوم، وكل ما جاء ذكر المرض: (الطبيب الفلاني فعل لي، والطبيب الفلاني فعل لي)، ولا يقول يومًا: (ربي أكرمني وشفاني)، {وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}، ما في أجهل من هذا الإنسان! {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}، يجلس يتحدث عن الطبيب في المجالس أمام أبنائه، أمام بناته، أمام أسرته، أمام أصدقائه، وقلَّ أن يقول: (إِنَّ الله شَفَانِي) -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وهذا من الخذلان.

العبد بمجرد أن تدب فيه العافية، بل قبل أن تأتيه العافية يقول: يا الله، وإذا جاءت قال: بالله، وإذا أحس بخيرها قال: الحمد لله، وعندها يرضى الله: ((إِنَّ الله لِيرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا)).

اللهم اجعلنا من الشاكرين، وارزقنا كمال الحمد والشكر لك يا رب العالمين.

فالمقصود: أَنَّ الله - سبحانه - هو وحده الذي شفى.

((شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)): بعض الشفاء جزئي، وبعض الشفاء وقتي، فينفع في زمان، ثم يعود الداء مرة ثانية، لكن أريد منك يا الله شفاء لا يغادر سقمًا.

((شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)): أي لا يبقى في المريض سقم، ولذلك أكمل ما يكون من دعاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن تسأله الشيء كاملاً، عطايا الله ما هي ناقصة، عطايا الله كاملة.

((اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)): أي أَنَّهُ شفاء تام كامل، فلا يعود مرة ثانية وينتقض، ولذلك بعض الأدوية وبعض الأطباء يعالج، ثم ينتقض -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وقد يعود البلاء أضعاف ما كان عليه، لكنَّ شفاء الله -جَلَّ جَلَالُهُ- بفضله ومنه يشفي شفاء لا يغادر سقمًا، فلذلك إذا حلَّ الشفاء، ونزع عن المكان لم يترك وراءه سقمًا، فلا يعود مرة ثانية، وهذا من

أكمل ما يكون أَنَّ العبد يسأل الله -جَلَّ جَلَالُهُ- أكمل المسألة وأتمها، طمعاً في رحمته وكرمه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-

قال الإمام أبو عيسى - رَحِمَهُ اللَّهُ -: حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
 قال - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وَسَأَلْتُ أَبَا زُرْعَةَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَهُ: رَوَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي
 سَعِيدٍ أَصَحُّ أَوْ حَدِيثُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كِلَاهُمَا صَحِيحٌ
 قال - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وَرَوَى عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ
 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عَنْ أَنَسٍ.

نسأل الله بعزته وجلاله وعظته وكماله أن يجعل ما تعلمناه وما علمناه خالصاً لوجه الكريم، موجباً
 لرضوانه العظيم.

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.